نصوص

الرّباط في بابِ الأسْباط

المتوكل طه

مفكر وكاتب فلسطيني

فضاء الملحمة

يداه المُجَرّحتان، والخِرقةُ التي يلفُّ بها جسدَهُ الورديّ، وشَعرُهُ المسبول المُجعَّدُ قليلًا، وقامتُه الفارعةُ السُّنبليّة، وتواضع جلسته على حجارة المعصرة، والتلاميذ من حوله.. ولا شيء غير أنه نبيٌّ يعظ ويشرحُ، ويكاد اليمامُ يفردُ أجنحته ليقعَ الكلامُ الرسوليّ على الرّيش، كما تقعُ حبّات الماء الصافية، فيطير بها.. ليُبشّرَ مَنْ لم يشهدوا حلقات النبيّ، لعلّ الأرضَ تُصادف السلام والطمأنينة والمحبّة.

كان الحقل لجدّته أُمّ مريم، وثمّة ثماني زيتوناتٍ دهريّات، والحجارة ملساء تشرّبت الزيت المعصور، وبعض العشب الهائش القليل.. لقد كان المشهد طبيعيًا رعويًّا لا يشي بما سيحدث من تحوّلاتٍ كونيّةٍ، ومن عِبَرٍ ستقشعرُّ منها المعادن.

كان يعرف أنّ المائدة ستهبط من السماء، وأنّ يهوذا سيخونُه بثلاثين رنّانةً نجسة، وسيُنْكره تلميذُه المُحبّ، وسيكون عَرقُه دمًا مخثّرًا، وسيصعدون به إلى الجُلجلة.

كان بُستان جدّته مُهيَّأ ليكون غير كنيسةٍ وقبرٍ مُقدّس، ولم يكن في بال البنّائين أن كنيسة

الجُثمانيّة "المِعصرة- الجتسمانية" هي وسادة الجموع الذين حلّوا على التلّة المُقابلة، صعودًا إلى باب الأسباط الذي ينفتح ليستقبل الشمس كلّ شروق.

والصعودُ إلى الأسباط طريقٌ قد يتعدّى العشرين ذراعًا، على يمينه المقبرة اليوسفيّة (نسبةً إلى يوسف، وهو اسم الناصر صلاح الدين الأيوبي)، وعلى يساره مقبرة باب الرّحمة (نسبةً إلى اسم باب الرحمة المُغلق الواقع شرق سور القدس بمحاذاة المقبرة)، اللتان يغفو فيهما الصحابةُ الأحياء، ويتزاحم في قلبيهما الشهداء الأبرار. ويبدو واضحًا أنّ هذا المكان كتب اللهُ تعالى بيده تاريخَه الجليل، إذ أَسْكَنَ فيه أولياءه وصحابةَ حبيبه والذين صدَقوا ما عاهدوه عليه.

وفي 21 تموز/ يوليو 2017، وبعد أُسبوعٍ كاملٍ من إغلاق الأقصى ومنع المُصلّين من دخوله، تحوّل باب الأسباط إلى ميدانٍ رئيسٍ لاعتصام الفلسطينيين في القدس، احتجاجًا على الإجراءات الإسرائيلية بحقّ المسجد الأقصى، خاصةً إغلاقه ومنع الصلاة فيه، ووضع بواباتٍ إلكترونية على أبوابه، وهي الإجراءات التي اضطر الاحتلال لاحقًا إلى إزالتها.

وخلال أيام الرباط لأهالي القدس على أبواب المسجد الأقصى المبارك رفضًا لدخولهم إليه عبر بوابات الاحتلال الإلكترونية، كان اسم باب الأسباط هو عنوان هذا الرفض، حيث الصلاة الجماعية التي وصلت إلى قرابة سبعة عشر ألف مُصَلٍّ على أبوابه، واستفزاز الاحتلال للمرابطين والمُصلّين عنده، واندلاع المواجهات وإصابة العشرات منهم، والاعتقالات التي طالت عشرات الشبان وإبعادهم عن المكان.

كما فتح أكثر من خمسين ألفًا البوابات المُغلقة، وعبروا إلى المسجد مكبّرين مُهلّلين في مشهدٍ مَهيبٍ جامحٍ جليل، يُذكّرنا بفتح مكة المكرّمة، في اللحظة التي فقدَ فيها الجنودُ عقالهم، وراحوا يُمطرون الفاتحين بزخّاتٍ متتاليةٍ من القنابل الغازية والمدمعة والصوتية ورشقاتٍ متّصلةٍ من الرصاص، واستدعوا قواتٍ مدججةً جديدة، حاولت أنْ تقف في وجه الجموع، لكنهم -أي الجنود- أُسقط بيدهم من هَوْل ما رأوه ومن اندفاعة الفاتحين بصدورهم العارية وصرخاتهم المتصادية المدوّية.. فهربوا، بل اختفوا هم وبنادقهم.

ولعلّ كلمة السرّ في كلّ ما جرى هي نساء القدس، اللواتي بدأن رباطهنّ في الأقصى منذ عقود، وما زلن على حالهنّ في الساحات وعند الأبواب.. وكلّما أبعدوا إحداهنّ رجعت مُتخفّية، ومعها وجوهٌ جديدة.

وخـلال الأربعة عشر يومًا من المرابطة، أغلق الاحتلال بوابات الحَرَم الشريف، ونصب البوابـات الإلكترونيـة والكاميرات، فتجمّـع المرابطون على امتداد الطريـق من الجثمانية شرقًـا إلى بـاب الأسـباط غربًا، بـين المقبرتين، وكان ثمّـة مرابطون في طريـق المجاهدين وسـاحة الغزالي وصولًا إلى باب الواد.. اقتعدوا الطرقات المرصوفة بالحجارة الملسـاء.. إلى العتبات والأزقة المحيطة بكلّ مداخل الأقصى.

وكانوا هناك!

مانفيستو الاحتجاج

لقد شهدنا لعبةَ المجزرة، ولمسنا التعاقدَ المسعورَ بين ولاياتِ الموت وكيانِ المذابح، وكان الحـقُّ مزحـةً وحشيّة، ولم نحـظَ بعُزلةٍ مجيدةٍ تُـضيءُ حقولنا الروحيّة، لأنّ الهـواءَ الملغومَ فخّخته قوىً دمويةٌ وفاحشة.

وحُرِمنا من الفرح الذي يرتفع مثل السهام، فكانت بهجتُنا تسقطُ في عقولِ الجثث، لكنَّ قلوبَنـا لم تشعـر بالملل.. لأنها تغذّت عـلى النار! فَقُمنـا بتخصيبِ مشهدِنا بِجَـمالٍ مُقاوِمٍ جديد، ليبدأ عهدُ الضوءِ السماويّ.

وهيّأنـا لصغارِنـا نومَهم النقيَّ، وأحَطْناهم بالأغاني المُشرقـة، وكان لا بدّ لهذه المظلمةَ أن تنتهيَ مثلَ الدخان.

ومَن لا يريدُ أن يرتعش، فعليه أن يخطو.

كـان المطرُ عرقَنا، ودمُنا هو القوة، وألقينا أيدينا من السـماءِ إلى الجحيم، وحاربنا سَـحرةَ النـوم، والفـنَّ المُضـاد، وقلوبَ الموتـى، ووقفنا أمـامَ الذين يُـؤدّون الحِيَلَ ويسـتمرئون الشبهَة، وأولئك الذين يتمتعون بجودةِ القسوة.

كانت أفكارُنا تهربُ من وراءِ القضبان، وقلوبُنا ساخنةً مثل غيمةٍ ملتهبة، وتجاوزنا مرايا الغموض، التي لا يتألّق فيها أحد، وتجاوزنا الهاويةَ الداكنة.

لم نكـن نريـدُ أن نسـحبَ أحـدًا إلى نهرِنا، غـير أنّنا كنّا في حـربٍ مع التاريـخ، ومع جميع السـلطاتِ التي تُقيمُ في أشكالٍ فاشـيّةٍ ومخيفة، ومع ما يُقيّدُنا مع مخاوفِنا الخبيثة.. وأردنا لصورتِنا أن تكونَ ضدَ السـماء السـاكنة، لأن هدفَنا الأغلى والأعلى، كان وما زال هو قوّة

الحقيقة، مثلما أردنا أن ننامَ، فقط، لنُسَلِّمَ أنفسَنا للحالمين، كما رغبنا أن نلتقي غزالةً نعصرُ خصرَها مثل الأكورديون.. تحت زيتونةٍ تتربّعُ على كرسيّ الأبد.

باختصار، كانت لدينا قصتُنا القاسية الرائعة، ويكفي أننا انتصرنا على مَن كان ينظر إلينا كأنه ينظرُ إلى خطيئته، ذاك أنّ عينيه مليئتان بالسُّمِّ والهجران، واستطعنا أن نتخلّص من النهايةِ الخائبةِ بعسلِ التَجذُّرِ والرباطِ الشريف، وأنْ نُعليَ صورتَنا النجميّةَ في كرنفالِ صلوات الأسباط الصوفيّة الفذّة، التي استطاعت أن تجمع البدرَ ليكتمل ويصلحَ للطقوسِ الأخيرة. لم يأتِ أحدٌ ليجدَ القدسَ أرضنا صِفرًا، بل لديها إرثٌ باذخٌ، لم يتخثّر نُعمانُه، كصحنِ الجمر وبراعمِ الدمِ وسخونةِ البرق، لم نكن قطيعًا أو هائمين على السّراب، بل كانت لدينا حضارةٌ تتجلّى فيها النجوم ويتصادى فيها الإبداع الخلّاق الشامل، فكان الساحل منارةً للأُمم، مثلما كانت جبالنا أعراسًا للطيور.

وقصدتُ أن أُساهمَ في تأصيلِ الحقيقة الغاضبة، لتصبحَ سبيكةً قادرةً على المواجهةِ، وحفظِ الذاكرة في المدارِك، وطردِ اللامبالاة والعجز واليأس واللاشيء.

وأنا على يقينٍ أنّ الكتابة تتطلّبُ الحقيقة وليس الإخلاص، على أهميته. والكتابة حياةٌ مثلما أنّ الحياة عملٌ فنّيّ، وكلّما علمنا قلّ فهمنا.. إلّا هنا، فقد اكتملَ فهمنا وأصبح نهائيًا وحقيقيًا، خاصةً فهمنا لما جرى في القدس، ذاك أنّ ثمّة اثنين؛ مُحتَلًّا غاصِبًا قاتلًا، وصاحبَ البيت المقهور.. ولا داعي للشرح! فالصورة واضحة.. ويكاد الأعمى يراها.

قبل أيام الرباط

تمرّ من تحت أقواس البيوت القديمة، وتمشي على درب الآلام، وتُعرّج على فرن السمسم والجمر الناضج، وتصلّي على مصاطب النّارنج، وتسير حيث الأنبياء والأولياء، وترفع عينيك لترى ورود الشرفات التي تتدلّى مثل القناديل، فترى غيلانًا صغيرةً، تقدح بعيونها الناريّة.. وتفجعك الأشياء.

***

كلّما شقّوا فتحةً بين مداميك حجارة حائط البُراق لِيدسّوا أمانيهم الخائبة وتعاويذهم الخرافية، انطبقت الحجارةُ على بعضها، وتساقط الوَهْمُ تحت الأقدام.. وتأكدوا أنّ خريفَ التزوير يُذَرّي أوراقَ الفجور.

***

وكـان أنْ شربـوا من ينابيـع أُخرى غـير التي انفلقت مـن الحجارة، فأصبحـوا منكفئين ووثنيـين وخارجـين ومتعثّريـن في الظلام. وظلّـوا حفنـةً منعوفةً في الأمصـار، لم يجدوا السعادة ولم ينصهروا في السوق الكبيرة، ولم يتماهوا في أعراس الأُمم المُبهجة، بل ظلّوا في تيههم، يعيدون إنتاج السواطير والقيود على غيرهم من الضحايا، وما زالت عبوات الدم مرصوفةً في مطابخهم، يشربون منها صباح مسـاء! من فيلون، وصولًا إلى سرمد المدافع عن الشيطان، وحتى آخر قاتلٍ مهووس.

ولَعلي أسـتنيم لقول البسـطاميّ الصوفيّ فيهم: ما هؤلاء؟ هَبْهم لي، أيُّ شيءٍ هؤلاء حتى تعذّبهم؟ إنهم واقفون في الماء عطاشى..

وإنهم لعنة التاريخ،

ومصاصو دماء الأرض،

والمرابون مثل نارٍ نهمة.

***

منذ قرنٍ والأهل يقفون في بيت العزاء، والموتى لم يصلوا.

أين ذهبت كل تلك الدماء والأصوات وبيوت الحنّاء؟

تزوَّجَـت الأول فوقع شـهيدًا، فاقـترن بها الثاني، فارتفع إلى الفـردوس بدمه الغزير، وما فتئت تُوزّع الحلوى.

***

يكرهـون حروفنا ومياهنا وشـعيرنا وغيومنا وأحلامنا وبيوتنا وشـجرنا وغناءنا، ونحن نكره ما يفعلون.

***

بالرغم من كل تلك الخيانات لا تيأسوا، واصلوا العزف.

***

أرى عيونًا صغيرة ترى أحلامًا كبيرة، تقول: ستذهب الأيام الخشنة، وليالي الدم المحروق، وسيحلّ الحصاد الذهبيّ، ويبتسمُ النورُ في الظلام.

***

أنتِ حدودُ قلبي وأنا حدودكِ. أملي لا يُقهَر، وغرستي الشاحبةُ ستكون شلّالًا بين الغيوم، وستُصبح كلُّ المواسم ربيعًا، والسحاب على الجبال سُيولًا من الضوء. وأعرف أنّ ثمّة ساحراتٍ في الريح، لكنّ خيولي أتعبت الرياح! وهذا وَلدي الذي ثقب سهمُهُ طيورًا مُحلّقة وقطع سيفُه الضوءَ، لأنه أدرك أنّ المَرَح لم يحن بعد. والشخص الجاهل غالبًا ما يكون الأقوى. ولا يمكننا النجاة فقط لأننا جيّدون! ويعلم أنّ كلّ شيءٍ مُترابطٌ حوله مثل بيت العنكبوت، وقد تَدْهَمه الأشياء السيئة، وتأتي متكاتفةً يدًا بيد، لكنه تعلّم القراءة بتتبُّع حروف اسمكِ، وها هو ينادي عليكِ.. يا بلادي..!

خلال تركيب البوّابات

انفزع الغرباء، وتراكضوا، وأغلقوا بيوتهم بإحكام، وشَخَص الجنود إلى السماء. لقد نزلت الأُسُود المحفورة من على جدران باب الأسباط، وراحت تتبختر بحريّةٍ في المدينة.

***

قبائل قديمة أُبيدت وتحوّلت أراضيها إلى غبار، لأنهم تمسّكوا برَقْصةِ الأشباح الأخيرة، أي إنّهم كانوا يرقصون حتى يسقطوا.

أما نحن، فلدينا ما لا ينتهي من الرّقصات، وقد عادت إلينا الأرواحُ الرّعديّة.

***

كلُّ شيءٍ يبدو عاديًا وهادئًا، لولا الأشباح المُضمرة في العتمة.

***

كان فلاسفةُ النوم قد اطمأنّوا.. وظنّوا أنّ الصحوةَ مستحيلة! لكنّهم فوجئوا بأنّ التلّة التي يقفون فوقها هي فوّهة بركان، بدأ يتململ في الأعماق.. وها هو ينعف نثار يقظته الساخنة.

***

ثمّة نَسبٌ بين المُصلّين والشجر.

***

لن تكون حُرًّا إذا لم تركب الحصانَ الوحشيّ.. وتَطِرْ.

***

أيها الجنود! مهما كان البسطار سميكًا، فسيهترئ.. وسيبدأ أَلَمُ المسامير قريبًا.

أيها الجنود! أيتها الكائنات المُحطّمة! لا شيء لديكم هنا لتثبتوه.

أيها الجنود! العالَمُ سيكون أفضل من دونكم.

أيها الجنود! لقد نظرتم إلى السماء من جهةٍ خاطئة.

أيها الجنود! لقد سقطتم في امتحان الإنسانيّة، وصرتم تَصلُحون للهزيمة.

أيها الجنود! كيف تُحاربون مَن يعتقد أنّه على حقّ، ولا تهمّه الخسارة، لأنه لن يخسر غير قيوده؟!

***

قبل أن تقولوا: إنّ القدس عاصمتكم!! عليكم أن تفتحوا بالسواطير صدور الملايين لتخلعوا المدينةَ منها، وأن تُغلقوا أرحامَ النساء، وأن تهجّروا الطيورَ والفراشات، وأن تذبحوا الأغاني، وتطلقوا النارَ على النهار، وأن تطحنوا كلّ حجارة الطرقات والبيوت والمعابد وتنعفوها في المحيطات، وأن تحرقوا كلّ الكتب، وتخنقوا الحكايات، وأن تُنزِلوا السيّدَ المسيح من السماء وتصلبوه، وأن تصطادوا البُراق، وتهضموا الجبالَ في بطونكم، وتنفوا الزيتون من الأرض، وأن تمنعوا الشمسَ من الشروق، لأنّها لا تُشرق إلّا من أجل القدس، التي هي لنا، من قبل آدم وإلى ما بعد النشور.

***

رنَّت زغاريدُ الولادة في باب الأسباط! لقد جاء الفارسُ المُضيء، الذي تبعثهُ السماءُ على رأس كلّ قرنٍ، ليغسلَ طريق الآلام ويحرق إكليل الشوك.

***

عندما يخلق السّيئون شيطانًا، فإنّ الأشرار يولدون، لكنهم يصلحون للفناء والتلاشي.

أما الأخيار أصحاب المحراب، فإنّهم لا يجترحون غير الصلاة، ولا يصاحبون غير الملائكة، ولا يخلّفون إلا التراتيل والدموع، ولا يبدؤون النهار إلاّ بتشريع شبابيكهم للعصافير والياسمين، ولا يفتحون لياليهم إلاّ للأعراس والمناديل. وكلّ ما يريدونه الحياة، كما ينبغي لها أن تكون.

***

العيون الملهوفة الجافّة تتفقّد السماءَ، وتشخص إلى ربّ البيت؛ أنتَ السنَدُ الحارسُ أيّها العالي المُتعال! ليس لدينا سواك! أنوارك تملأ المكانَ والزمانَ، إلهنا.. إلهنا.. مَن سواك.. ومَن سواك!

***

ينادون العروسَ بالغناء، فتخرج النجوم.

مشاهد من الرباط

شابٌّ يصلي واقفًا يحمل صليبه بين جموع الساجدين. اعتقله الجنود، لاحقًا، وفي الزنازين رأوه على وقفته وهو يستقبل الأقصى.

***

النساء، في باب الأسباط، مخلوقات الضوء، والصوت السماويّ، وسلّة البذور المُعافاة المليئة بالنبض والبدايات.

وسلالُ القتلة محطّمة.. مهما ارتفعت للسماء، ستبقى فارغة.

***

لقد صلّى الخوري، يوم الأحد، وأعطى موعظته للمسيحيين في باب الأسباط، وعندما أقاموا صلاة الظُّهر، توقّف عن موعظته، وأمر المصلّين أن يبقوا في أماكنهم.

***

حملوه إلى العيادة النفسية، ذاك أنّ الجندي قد أقسم بأنّ الموتى نهضوا من المقبرة اليوسفية وتصدُّوا للجنود، وحملوا قنابل الغاز وألقوها بين أقدامهم.. ثم عادوا إلى القبور.

***

ها هم يُضرّجون الغيومَ بأقدامهم المُدمّاة وجماجمهم المُحطمّة، ولم يسقط العَلَم!

***

اندفع المرابطون وأعادوا فتح الأقصى، ولم يجعلوا الطرقات تنتظر أكثر من أربعة عشر يومًا!

كان الأمل يرعش ضوءًا في عيونهم، والرياح تغنّي ألحانهم، كأنَّ الحوريّات المُتيّمات على موعدٍ معهم في بستان الصلاة.. وخلاخيل البرق تُحيط بأقدامهنّ.

***

ربّما، رُبّما يضيع اسم هذا المرابط أو ذاك، في مكانٍ ما، في صفحات التاريخ، لكنّ الأقصى هو الناسُ والدفترُ السرمديُّ، وهو الشجرةُ التي تُعطي الظلَّ والثمرَ والنارَ، وهو تجربةُ الجَنَّة الأولى.. لنبلغَ الخلود.

***

طيورنا المنفيّة تتوق للعودة. لأنّ المنفى بلا أسماء أو طوطم أو ذكريات. والمنفى مليء بالجِنّ الشرير الذي يُدوِّم في الجهات المظلمة، ورياحه حمراء، واللعنة مُلقاة في طرائقه، ويترك المرارة على الشفاه، ويُبقي الأوجاع رطبة. والمنفى بطنُ العتمة، وساعة العُمر المحتضرة، ودموعه ملح، ولغته كلمات الهذيان الأخيرة.

***

لنا أكثر من مئتي جامعٍ وكنيسةٍ ومسجدٍ وديرٍ ومقام، منذ أكثر من ألف عام! ولا يوجد كنيسٌ واحد في كل المدينة وأرجائها، غير التي أقاموها قبل أسابيع فقط!

***

بَطنُها أمامها! إنها حاملٌ في شهرها الأخير، وكان عليها أن تخترق حاجزَ الجنود، لتصل إلى باب الأسباط. وربّما عَتب عليها المُرابطون، وقالوا لا تثريب عليها إنْ بقيتْ في بيتها! لكنهم كبّروا وقصدوا مكانها عندما مدّت يديها تحت عباءتها، وراحت تلِدُ الرايات وتُكوّمها.. بألوانها الواضحة أمامهم لتخفق عاليًا، وعلى مدّ البصر.

***

كانت البلدة القديمة تكتفي بالمسحّراتي "أبو الأمين" وهو يقرع طبْلتَه في هزيع ليالي رمضان المبارك. وقد فات شهران على الصيام، إلّا أنّ أبا الأمين وتسعةً آخرين عادوا يقرعون طبول الليل قبل صلاة الفجر، فتدوّي الأزقّة والجدران، وتستيقظ البيوت.. لتقصد باب الأسباط وتقيمَ صلاةَ الرباط، قبل حلول الخيط الأَسْودِ على المكان.

***

لم يكن غير مصوِّرٍ صحافيٍّ أجنبي، لكنَّ جنديًا هجم عليه وحطّم الكاميرا وانهال عليه من دون رحمة! لقد رآه وهو يلتقط صورةً للحَمام الذي حطّ على أكتاف المرابطين عندما وقفوا للصلاة.

***

لسنا على جزيرة العار، التي قيّدوا على صخرتها الشباب "العبيد"، الذين وُلِدوا تحت برج الأفعى، وساقوهم عُراةً إلى العالَم الجديد، فصاروا ملحَ البحر، بعد أن كان لهم سرير الرمل أراجيح وأعذاق، وأمست الأمواجُ أكفانَهم، وضجّ الأزرقُ المخيف بصوت جثثهم وبالسلاسل الصدئة. ولسنا خِرافًا بلا قرون، رغم أنّكم مثل أجدادكم المُذنِبين، تقفون خلف أسلحتكم المذخّرة، وتتمنطقون بالقنابل الغاضبة.. لكنّ شيئًا ما يتمسّك بنا نحن المُلَوَّنين، هو الحياة البيضاء، لمواجهة معرفتكم السوداء العنصرية البغيضة، التي ورثتموها من حفلات التطهير العرقيّ وسلخ فروات الرؤوس واغتصاب القاصرات.

***

نعم، إنها العروس بين جموع أهلها وأهل خطيبها، بثوبها المُطرّز البديع! وتقدّم الشيخ

وعَقَدَ قرانها وسط المرابطين المُهنّئين، وتشجّع الشبان وراحوا يرقصون، فَشَبَكَ الشيخُ يديه معهم وهو يقول؛ غَنّوا! ليعلموا أنّ في ديننا فُسْحة.

***

مَن الذي نَصَبَ المراجيحَ في الساحة، في اليوم الخامس عشر؟!

ها هي الضفائر تُلوِّح في الهواء، والفساتينُ الصغيرة تُطْلقُ بلالينَها الملوّنة في السماء، والجموع تهنّئ بعضها وتتعانق، والألعاب الناريّة تتفشّى ضياءً في سَقف المدينة، والدّفلى يطرق الأبوابَ ويترك أغصانه فوقها.

إنها قوّة الحياة في المدينة! ومساؤها أساورُ وكعكٌ وعطرٌ وليمونٌ وسُكَّر.

إنه العِيد.

***

قد يمنعك بريقُ شمس قبّة الصخرة من رؤية النجوم، لكنها قد هبطت جميعها في تلك الليالي، وانتظمت في أثواب المقدسيّات، اللواتي يبرقْن في العتمة، كلّما خَطَوْن نحو الحَرَم.. ليواصلن رباطهنّ الشريف في أنحائه.

***

نحن التاريخ والتحوّل الصبور، والتناغم الهادئ بين النجوم. ونحن العدلُ الذي سيغلب القتَلَة والأشياءَ التي تُسمّم السلامَ في أرضِ السلام.

***

إننا نحبُّ ما كُنّا تعلّمنا حُبّه. وزراعتنا الروحية مجيدة، وغريزة المقاومة مثل غريزة الفنّ.. بدائية دائمًا، وصادقة أبدًا.

***

إذا نظرتَ إلى شيءٍ يلمع مدةً طويلةً، فسيعمى بصرك بسببه! إلاّ قبّة الصخرة، فكلّما نظرتَ إليها توالدت في وجهك العيون.

***

الأُسود الأربعة المنحوتة على يمين باب الأسباط ويساره هبطت من نَوْمتها الحجريّة وأَقْعَت أمـام الجنود، وراحت تنفضُ عنها سـكون الأزمان، وها هي عيونهـا تقدح، ومخالبها تحتدّ، وزئيرهـا يتفشّى مثل هبوب البركان، وراحت تتقدّم بِحَذَرٍ وثقة، ولم يتمكّن الرصاص من خدش وَثَبَاتِها وهي تنهش الجنود وتخمش وجوههم المرعوبة.

***

كـان الصباح بانتظارنا! نِصفُه لنـا ونِصفُه لهم.. لولا أنهم آثروا العتمة وظلّوا غائصين في وحل الليل.

***

أَرجعَ مُطلّقته بعد أكثر من عام، يوم أن رأى الجنود وقد هجموا عليها وحطّموا هراواتهم على رأسها، فانطلق لحمايتها، وراح يتلقّى الضربات عنها، واصطحبها إلى البيت.

***

لقـد أقلـع عن الشراب! فهذا هو اليوم الثالث عشر مـن مرابطته، ولم يقصد الحانة.. وقد اكتشف أنّ الناس يُحبّونَه!

***

المسجدُ الجريحُ يُؤلِمُ الوطنَ كاملًا..

***

لقد لسَعَتْنا نارُ إغلاق البوابات لنُنقذَ المسجدَ من الحريق

***

الطيور الغريبةُ في القدس.. لن تُجيد الغِناء!

***

بعـد أيامٍ من الأحداث، جلس الضباطُ الكبارُ لاسـتخلاص العِـبَر ممّا جرى، ومكثوا في

مُـداولاتٍ عميقةٍ طويلة.. وأخيرًا نظروا إلى بعضهـم، ورموا الأقلام.. وكأنّهم قالوا: لا فائدة.. لا فائدة.

***

سـيفرِدُ حفيدُ أبي حامد الغزاليّ بسـاطَه، ويتربّع أمام تلاميذه، وسيطلب منهم أن يُنصتوا جيدًا ليسـتمعوا إلى الصلاة الممتدة.. وإلى قعقعة الأسـلحة التـي يذخِّرها جنودٌ غرباء.. وإلى ارتطام الصدور بالدخان وتصادم الأكتاف بالحديد.. وإلى تكبيراتٍ عمّت المكان.. وإلى صبيّةٍ تزوّجت عشرين رصاصة.

وسيسـأل العابرون إلى الأقصى: ما هذه الريح الزكيّة! ويقولون: إنّها دماء صبيّةٍ تزوّجت يوم الفتح.

***

الجنديُّ الذي مَعَسَ ببسطاره حوضَ النعناع أمام تلك الدار في باب حُطّة.. رجع وقدمُه تهرّ دمًا! لقد مزّقتها أشواكُ العوسج.

***

عندما وبَّخَ الضابطُ الجنودَ الهاربين. أجابوه: إنّ آلافًا مؤلّفةً يسيرون فوقنا في الهواء!! غير أولئك المندفعين على الأرض.. وكانت وجوههم لا تُرى، تماهَت مع الشمس!

***

عندما رأى رتلٌ من الجنود طفلًا يرسـم القبابَ والأبوابَ والأسـوار.. توقّفوا، والطفلُ يرسمُ غير آبهٍ بهم! فانتزعَ أحدُهم الرسمةَ ومزّقها، فابتسم الطفلُ أمام استغراب الجنود، الذين رأوا أنَّ الرسمةَ قد انطبعت فوق الحيطان، على امتداد الطريق.

***

خـلال أيـام إغلاق المسـجد كانت الأشـجارُ تتنـادى وتصطـفّ وراء الزيتونـة، وتُؤَمِّن خلفها، فصلاة الجماعة في الأقصى لم تنقطع، فالليمون والنّارنج والسّرو على وضوء دائم، والزيتون يحفظ القرآن الكريم، والقباب تُقيم الصلاة.

***

من الخطأ أن تخاف من الأشخاص الخطأ.

***

لقد جمعتم الألم وخلقتم منه عصابة.. ستقضي على الألم.

والألم مُدرّسُنا وعرّافنا، ويعلّمنا مَنْ سنكون.

***

الكوابيس ملأت الأنفاق، فلم يعد أيّ ضوء، نتغيّا الوصول إليه، إلاّ إذا صدّقنا أحلام الأغنية والألوان والحقائب.

***

يُطلق البرقَ من كفّه، وتمشي إليه المتاريس، وتقاتل معه الملائكة.. ويُطرّزه الرّصاص!

إنه خبز حياتنا الدّامي، وكأس الخلاص المُرّ، وفرحتنا الخانقة، وما تبقّى لنا..

نُطلق اسمه على الشوارع التي لم يمشِ عليها، ونرفع مُلْصَقَه للشمس، لعلها تشرق، غير مرّة، في النهار..

وما فتئ يتكوّر في الأرحام، لنطبع على وجهه قُبْلتنا الحارقة.

ونحلم لأن يكون زفافه على الأرض.

***

كلّما مزّقوا الوردة وخلعوا أوراقها.. يجمح الطوفان ويثور البركان ويجفل المحيط. وعندما يُمْعِنون في تعريتها.. تزدهر السخونة في الأبدان، وتلتفّ السنابل على هلال المنجل، وتحمل الأرضُ بالجدائل الميّاسة. وحينما يصل النّصل إلى الرّحيق، يكون الجَنين قد اكتمل، وأضاء الكون من جديد.

***

سنرفع أسماءهم على المفارق والأزقة والمشاعل.. وقد هتفوا فينا: اركضوا، لقد تعبنا من

المـشي. وها هي المدن السـاحلية تبكي عـلى أيام مَنْ كانوا.. وهاهي الصـورة المهشّمة ذاتها بلونها الباهت المُعتاد، معلّقة على حائط الدار. ومع أنهم هدموا الدار.. فقد بقيت الصورة.

***

سذاجة العاصفة أنها فائقة الوضوح وشرسة، وتطفو فوق اليابسة، ولا تُفرّق بين ما تلقاه، وربّما هي متورّطة بأشياء غامضة، لهذا تلبس ثيابها سريعًا وتخرج من بيتها.. ولا تعود.

شيء آخر!

ما هو؟

لا شيء سوى أن المدرسة علّمتنا أن ننحني لها! لكنّنا خيّبنا أملها.

***

النّعش الصغير، كان النعش الأثقل والأصعب.

***

عندما يموت شخص فاسد ينتهي حُكْمُه. وحينما يرحل شخصٌ صالح يبدأ حكمُه.

***

الفهـد الـذي كان يطارد الغـزلان في اللوحة المعلّقة على الجدار، هـو الذي هفّ مسرعًا، ووثب على الضابط الذي استباح البيتَ مع جنوده!

***

البعض مدفونٌ داخل جسده، ويكابر أنه حيّ!

بدليل أن سيفه يشرّ دمًا.. ويصيح!

***

يحدّق فيّ من خلف الأشياء!

وإني أرى جمرتيْ عينيه في قلب الظلمة الثقيلة.. ولم يرمش.

كلانا خائف، وكلانا تقدح نظراته الواسعة ويبحلق في الأشياء، ويصيخ السَّمْع لكل نأمة أو صوت.. وهو متحفِّز في وقْفته.

أنا إنسان، وهو ليس ذئبًا تمامًا.. لكنّها العتمة!

***

المُسَطّح الغامض الذي فزّ من نومه فصار يقظًا يحرس الغابة، بحكْمةِ الشيوخ، هو نفسه الذي لفّته الزوبعةُ، وأخذته إلى كهف الساحر السّاديّ، أو الكائن الخرافيّ، مَنْ يرصف عبوات الدم على رفوف منزله المسروق..

والمُسَطّح يحلم بمبذل الأسطورة أو بإطار الرموز، الذين أكلتهم القيود أو مضغتهم المعارك الطاهرة.. ولم يفطن بأنه في حمأة الكابوس، الذي سيتركه في الحاوية، ويترك لنا باقة الأحلام.

***

رذاذٌ خفيفٌ نظيفٌ يسّاقط على المرابطين؟!

إنها دموع الأنبياء المُعلّقين في الهواء!

***

هنا تجدُ الناسَ أحرارًا؛ في لغتهم الجسديّة، سلوكهم، كلامهم، نظراتهم، أغانيهم، وفي الصُّور، لهذا تركوا علامتهم الخاصة على صفحة التاريخ.

***

الطالبُ الجامعيُّ الذي التحقَ بالمُرابطين راح يُراجع دروسَه، فَسَأله رجلٌ هرمٌ: ماذا تقرأ يا ولدي؟

أقرأُ قصيدةً للإسبانيّ خورخيه مانريكا، يقول فيها:

"المعركةُ الوحيدةُ التي قاتلتُ ضدّها هي انعدام الأهميّة".

هزّ الرجلُ رأسه، وقال: هذا شاعرٌ يصلُح لنا.

***

من الصعب أن تكون شجاعًا.. إذا كنتَ وحدك!

فالجماعة هي الإشارة الخاصة التي يحتاجها الناس لكي يؤمنوا بقوّتهم الجسورة.

***

لقد حمَلَت بعد سنوات!

قالت: كنتُ أسند ظَهري إلى جدار البوابة، فجاءت، ومسّدت بيدها الشريفة على بطني، ثم صعدت مع الغيوم، غير أنّ مريم البتول قد غمزتني بعينها، وقالت: هذا سِرّنا!

***

الانتصار على الناس العزّل بالقوّة الباطشة.. مثل الرّقص بلا موسيقى! ارتباكٌ وترنُّحٌ وتعثُّرٌ وطَيشٌ وجنونٌ ولعثمةٌ مخمور.

***

العجوز التي كانت "تُحَوِّشُ" الحرامات والبطانيات ومفارش الحرير والوسائد لعُرْس ابنها.. حملتها كلها وفرشتها تحت أقدام المرابطين.

***

يصرخ على الجنود بالإنكليزية: هل هو تُركيّ، هنديّ، كرديّ..؟ ليس مُهمًا، فقد كان يهتف مع المرابطين بالعربية.

***

المُعلّمة التي استدعت طلبة مدرستها أوقفتهم صفوفًا، كما علّمتهم، وراحوا ينشدون معًا.. تحت عَلَمٍ واحد.

***

الفلّاحاتُ اللواتي يحملْن سِلالَ الخضار والفاكهة الموسميّة، ويعرضْنها للبيع.. في باب العمود على طول طريق باب الواد، ذهبنَ جميعهنّ إلى باب الأسباط، ورجعن سريعًا إلى بيوتهنّ في القُرى المجاورة. لقد نفدت بضاعتهنّ، وقَبضْنَ أثمانها ابتساماتِ شُكرٍ ودعواتٍ طيّبةً من الذين قَبِلوا هداياهنّ الطازجة.

وثمّة مَن يتربّص.. ليحطّمَ السلالَ ويبعثر ما فيها..

***

هجم الجنود على المراسل الصحافيّ الذي يُقدّم تقريره مباشرةً.. ودفعوه، وأغلق أحدهم بيده عين الكاميرا، فهاج المرابطون، وتعالت تكبيراتهم، فتراجع الجنود، الذين تعثّروا بخوفهم وتكوّموا على أنفسهم وارتبكوا.

فَعَادَ المرابطون ضاحكين! غير أنّ رجلًا بكى وهو يُهَمْهِم: كيف لهؤلاء أن يحتلّوا مسرى النبيّ؟!

***

بحثتْ عنه، وأخذتها الوساوسُ إلى الفَزَع.. أين ذهب؟

أسرعتْ نحو باب الأسباط لعلّها تجد ابنها ذا الأعوام الثمانية، فوجدته قد تعربَشَ على سور بيتٍ قريبٍ وحمل بيديه كرتونةً.. ليُظَلِّلَ بها على المُصلّين.

ابتسمت، والماء يفيض على وجهها.

***

لم تعد نساء "أواريس" يَحبَلْنَ من هَوْلِ ما شاهدنَ من فظائعَ مريرةٍ في الحرب، لكنَّ امرأةً من القدس بَقَرَتْ بطن "أبوفيس" المحتلّ، وولدت "أتحمس" الذي انتصر وغَنم السفن والفؤوس النحاسية والكثير من الزيوت والعسل، وضربت بحذاء "خروتشوف" على المنصّة العالمية. وها هي بابل تعود إلى حدائقها المعلّقة وشمعتها البيضاء، مثلما يركب الفندلاوي على حصانه ويرفع رايته في إيبلا الشام، وسيصل عمّا قريب إلى الكرنك، مرورًا بأرضٍ حُرّةٍ تتوسّطها القبّةُ الباذخة.

***

هـذه الدمـوع البيضاء من الغيوم السـوداء. ولا بـأس في أن يبكي الرجـال.. فرحًا! فقد سـطعت كلُّ الحجـارة فـورَ أنْ قبَّلَتها الأقدام أو لامسـتها جِبـاهُ الشاكرين السـاجدين، والسماءُ صافيةٌ.. على غير عادتها.

***

ليعلموا أننا لم نتحاسب مع جنوننا.. بعد!

***

ويبقى باب الأسـباط ضحكةَ فاطمـة وبُشرى مريم، ووجوهَ الضـوء التي أزالت الصدأ عن حجارة الخلود، وسيبقى تجربةَ العارفين الذين وصلوا إلى مجد النور، ليُتمّموا الوَصْلَ كاملًا، ولو بعد حين! فما زالوا في أرض السماء، وما فتئت تعازيمهم تُنبئ بالكَشْف..

وطوبى لأسباط المدينة.